

## مقدمة

هذا كتاب من أعمال فرويد المتأخرة يطرح فيه آراءه في الحرب والموت والحضارة، فهو من كتب الفلسفة أقرب، وهو تطبيق للتحليل النفسى فى مجالات غير مجال الأفراد، يحاول به فرويد أن يسبر أغوار الحرب ويحللها، ويتعرف إلى ظاهرة الموت ويعلم من أمور الحضارة، ويرد ذلك جميعه إلى أصول فطرية فى الإنسان وناموس فى الطبيعة ومبادئ فى الوجود لا يحيد عنها ولا تحيد، فإن استطاع الإنسان تحويلها أو تهذيبها فإنما ذلك ضمن إطارها كقوانين، وإن نجح فى التعديل فليس ذلك إلا لأنه خاصة من خواصها.

ويحاول فرويد أن يطرح أسئلة من صميم الفلسفة : ما الغاية من الحياة؟ ولماذا نعيش؟ وما هى السعادة؟ وكيف نحصل عليه؟ وما هو الاجتماع وكيف كان وإلى أين يسير؟ وكلها تطبيقات فى التحليل النفسى تسيير على نفس المنهج وتجيب على كل ما يثيره من أسئلة إجابات قاطعة حاسمة.

ويندرج هذا الكتاب ضمن مجموعة كتب فرويد الفلسفية : «الطوطم والمحرم» و«مستقبل وهم» و«ما فوق مبدأ اللذة» و«موسى والتوحيد»، وهو بهذه الصفة على قدر كبير من الأهمية، لأن فرويد به وبغيره يستكمل رؤياه بحيث تستحيل إلى أيديولوجية متكاملة تتجاوز التقنيات السيكلوجية إلى آفاق أرحب تصنع منها فى زعمه نظرة عالمية Weltanschauung وطريقة فى التعايش مع الوجود والناس بشكل أفضل يحقق السعادة للإنسان.

ولسوف نرى الفرويدية تعالج أطروحات عالجتها الماركسية، والفرويدية كما نعرف جاءت بعد الماركسية، ومن غير المعقول أن لا يحيط فرويد بها بوصفها إيديولوجية العالم المعاصر، لكن فرويد يزعم أنه لم يطلع عليها الاطلاع الكافي، لكن ما يطرحه من أسئلة وما يبيده من إجابات يجعل من الفرويدية صنو الماركسية تشبهها في الكثير أو تكاملها، حتى أن بعض المفكرين قد أثارهم ظاهرة التشابه أو التكامل فحاولوا التوفيق بينهما وخرجوا على العالم بفلسفات توفيقية، نحصى من هؤلاء فلهم راخ وإيريك فروم وهيربرت ماركوس.

ويلفت نظري في تاريخ الإيديولوجيتين مسائل تلحان في طرحهما، فالفلسفتان من الفلسفات المادية ومن إبداع العقلية اليهودية، والتشابه بينهما حقيقى ويتعدى التشابه في الأفكار إلى تشابه في المصطلحات، وكلاهما اتجه اتجاهاً «دوجماتيقيا» جزميا، و«شموليا» نرجسيا، و«استلابيا» عدوانيا، بمعنى أنهما لا تطبقان أن يخرج أتباعهما على نصوصهما، وحدث أن اتهم ماركس ولينين وستالين وتروتسكى الكثيرين بالمروق وحكموا عليهم بالفصل من الدولية العمالية وهى تجمع الاشتراكيين أو الشيوعيين فى العالم، واتهم فرويد عدداً من حواريبه بالخروج عليه، وكان اتهامه يرقى إلى مستوى التكفير وأخرج الكثير منهم من دولية التحليل النفسى، وهى تجمع المحللين النفسيين فى العالم.

ويلفت النظر أن القائمين على حركة التحليل كلهم من اليهود، ولا يسعنى إلا أن أتساءل لماذا؟ ولا أعرف الجواب. كل ما أعلمه أن العقلية اليهودية تتباهى بأن التحليل النفسى من إبداعها، ولكنى لا أعرثر على تباه مماثل إزاء الماركسية، وإن كنت ألاحظ أيضاً أن المنظرين لها بالأمس واليوم معظمهم من اليهود، حتى فلاسفتها الحاليون فى الاتحاد السوفييتى والمجر ورومانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، وأثارت هذه الظاهرة نفسها ستالين فقد وجد أن من أعضاء المكتب السياسى الاثنى عشر تسعة أعضاء يهوداً. ظاهرة ملفتة للنظر لكنى لا أعرف لها جواباً !

ولسوف نرى فرويد يقيم فلسفته فى الحياة على مقولتين أو دعامتين، ويجعل على عرش العالم إلهين، يسمى أحدهما إيروس، وهو إله الطاقة التى تنفخ فيه الحياة وتحفظها عليه وتجمع بين الناس وترتبط بينهم برباط الحب فتتكون الأسر فالمجتمعات الكبيرة فالإنسانية بعامتتها. والآخر أنانكيه، إله الضرورة التى تشد الناس إلى العمل، فيكون الاجتماع والتعاون والبناء والإنتاج والامتلاك.

ولسوف نلاحظ أن أنانكيه هذا هو إله ماركس، أو الضرورة أو الدوافع الاقتصادية التى قال بها والتى تفعل فعلها فى الإنتاج الفكرى والفنى والخلقى للإنسان.

وقد يصوغ فرويد نظريته بطريقة أخرى فيطلق على إيروس مبدأ اللذة، وعلى أنانكيه مبدأ الواقع، ويقول إنهما مبدأان يحكمان الإنسان من قديم

الزمان، وسوف يحكمانه إلى ما شاء الله. ويتحكم مبدأ اللذة فى تصرفات الطفل بالإقبال على كل ما يمنح اللذة والإدبار عما يكون مردوده الألم، وبطريقة أخرى ينشد الإنسان الذى لم تصقله التجارب ولم يتعلم حكمة الوجود، ينشد فى تصرفاته الإشباع المباشر من غير أن يشغل نفسه بظروف الزمان والمكان. لكن العالم من حوله لا يتيح له هذا الإشباع المباشر المطلق، فيضطر أن يتعلم أن يؤجل هذا الإشباع حتى تواتى الظروف، ويتعلم أن يخضع للواقع أو لمبدأ الواقع، ويتعامل مع العالم بإمكاناته المتاحة.

ويقر فرويد للماركسية بقوة التأثير، لكنه لا يسلم معها بغلبة الدوافع الاقتصادية فى تحريك الإنسان والتاريخ، ويحتج على ذلك بأنه حتى فى الظروف الاقتصادية الواحدة لا تسلك الجماعات الإنسانية المختلفة سلوكاً واحداً. وإذن فالغلبة لا يمكن أن تعقد إلا للعوامل النفسية، تلك العوامل التى تحدد مسار الظروف الاقتصادية والسلوك الإنسانى، لأن الإنسان حتى وهو يتصرف بضغط من الظروف الاقتصادية إنما يمتثل لنزعاته الغريزية فيحافظ على حياته ويميل إلى العدوان ويريد الحب وينشد اللذة ويتحاشى الألم، ويحقق لنفسه كل ذلك وأكثر منه ضمن إطار عام يسميه فرويد التطور الثقافى حيناً والحضارة أحياناً.

والتطور منطقته وحتميته، وهو يحمل الإنسان على الانحراف بغرائزه عن أهدافها الأصلية، وبوجهها وجهات لاشك أن الظروف الاقتصادية تدفع إليها، لكنها على أى الأحوال وجهات تتفاوت بتفاوت التكوين العام للأفراد والشعوب، وتتفاوت تأثيرات الثقافة والظروف المادية عليهم جميعاً.

ولسوف نجد أن فرويد فى طرحه لهذه القضايا وغيرها لا يطرحها كفروض علمية، ولا يكون منها فى مواقف العلماء، لكنه يطرحها ككتأملات. وهو أقرب فى منهجه إلى أصحاب الرؤى، بل هو يتنبأ بنبوءات ويتنبأ ماركس بنبوءات، ويلفت نظرنا التشابه مرة أخرى، وتتذكر فوراً أنهم يهوديان، وأن خلفيتهما الثقافية أو تراثهما واحد وهو التوراة، وكأنما «رأس المال» و«تفسير الأحلام» سفران أخران ينضافان إلى أسفار التوراة التسعة والثلاثين، وكارل ماركس وفرويد متنبئان يندرجان ضمن قائمة متنبئى بنى إسرائيل الأربعة والعشرين، وحينئذ قد يكون هناك جواب على السؤال الذى طرحناه فى أول الكلام : لماذا هذا التجمع اليهودى حول الماركسية واليهودية؟ ألا يفسر هذا التراث ذلك التجمع، وأن الماركسية واليهودية نسختان عصريتان للتوراة؟ وألا يكون هذا التراث هو الأرض المشتركة التى عليها يجتمع كل اليهود؟ لكن ماذا يشدهم فيه؟ أنه تراثهم وماضيهم وإسهامهم الحضارى، وأنه ماضى يبشر بالمادية، ولا أعتقد أن قارئ التوراة أو التالمود يمكن أن يخرج بانطباع آخر سوى أنهما كتابان فى المادية. وتخلو التوراة والتالمود تماماً من أى حديث عن الروح أو الحياة الأخرى أو الحساب، ويقصران فلسفتهما على التعامل مع الواقع وتنظيمه، لكن ماديتهما مادية نفسية وتاريخية واقتصادية ممتزجة مع بعضها امتزاج العناصر فى نسيج الخلية، لكن ماركس ينفرد بالمادية التاريخية الاقتصادية وبيبرزها، ويختص فرويد نفسه بالمادية النفسية، ومن ثم يبشران اليهود ويقدمان نسخاً عصرية للمادية اليهودية، الرؤية الحضارية لليهود وأسلوبهم فى الحياة (بلغه فروم وأدلر)، وربما يكون هذا التفسير هو

إجابتي على ما سبق أن أبدت من تساؤل وما لفت نظري، لكنك قد تسألني لماذا هذا الجواب؟ فأقول إن ماركس قد نبهني إليه في مقاله «المسألة اليهودية» الذي طرح فيه تصوره لاضطهاد اليهود، ولم تكن مسألة اضطهاد اليهود تطرح نفسها بشكل حاد حتى ينبرى ماركس للتصدي لها ومناقشتها وتقديم الحلول، لكنه كان يحسها بشكل حاد، وفارق بين أن توجد المشكلة بشكل موضوعي يفرضها اجتماعياً، وبين الوعي بها كمشكلة ذاتية وعبئاً له أسبابه السيكولوجية، وما كان من الممكن أن يكتب ماركس نحواً من مائتي صفحة ويستشهد بنحو خمسين مرجعاً لو لم تكن المسألة اليهودية تلح عليه وتشغل من وقته وفكره الشيء الكثير، بمعنى آخر أنها مسألة قومية تخصه كيهودي، وهو يريد أن لا يجعلها قومية ومن ثم يخلعها من خاصيتها القومية، وطالما أنها مسألة من مسائل الاقتصاد وتعنى أن اليهودية هي الملكية، فإن إلغاء الملكية يفرغ اليهودية من مضمونها ويلغيها كمشكلة، ولكنه في مقابل حلها بتجريد اليهود من ملكياتهم مجرد المجتمع كله من الملكية، فالملكية سبب انحراف اليهودي، وليس فقط اليهودي ولكنها سبب انحراف كل الناس. لكن نبوءة ماركس تخيب كما خابت نبوءات أخرى، فلقد جرد المجتمع السوفييتي اليهودي وغيره من الملكية لكن المسألة اليهودية ما تزال. وإذن فكما يقول فرويد إن العوامل النفسية هي التي لها الغلبة، وفرويد يبحث عنها في التراث، وإذا نحن أردنا أن نفهم اليهودي فلنحاول أن نقرأ تراثه، فمفتاح اليهودية كله في التراث، وفرويد يكشف يهوديته لأنه هنا لا يتناول تراث الإنسانية كلها، وهيئات له أن يفعل، لكنه يقرأ التراث اليهودي ويجعله تراثاً لكل الإنسانية،

وكانه يجعل أصل الحضارة التراث اليهودي، أو يجعل لها أصلاً يهودياً. ويقدم عالم الأنثروبولوجيا مالفينوسكى تفسيراً لأصل الحضارة باعتبارها حصيلة الشعور بالذنب نتيجة عنوان الأبناء على الأب الأول، ويقبله فرويد لكنه يجعل أصل الحضارة الأوروبية الشعور بالذنب نتيجة قتل الأب ويجعله هنا النبي موسى، ثم يحكم الأبناء بعد موسى لكنهم يقتلون أخاهم، ويقصد به هنا المسيح، ويتأكد الشعور بالذنب مرة أخرى كأصل لهذه الحضارة، وهذا هو السبب الذي يجعل فرويد ومن يحنون حنوه يذهبون إلى القول بأن الحضارة والثقافة والأخلاق الأوروبية يهودية مسيحية الأصل.

يلفت نظرنا ذلك، وليس فرويد مُنْزَلاً أو مُنْزَهاً، وإنى لأعجب بمنهجه كل الإعجاب، وهو يفترض الفروض وينبذ بعضها ويتبنى بعضها ويسايرها حتى النهاية، برؤية واضحة وهدف محدد، يسهب فى التعبير ويستدرك ويستطرده ويلف ويدور وينتهى إلى النهاية التى يريد بأستاذية لاشك فيها، أحب لو أتعلم منها، وباليت يكون من مفكرينا من يقفو على أثره ويخدم قضايانا القومية والثقافية بمثل ما يخدم فرويد قضايا قومه. وليست هذه المقدمة نقداً وليس فيها ما يشبه النقد، ولكنها ملحوظات كتبتها كهوامش لعل فيها بعض الفائدة.

**عبدالمعزم الحفنى**